الفلسفة الهندية

زار مصر فى الأيام الأخيرة علم من اعلام الشرق وحكيم من حكماء الهند فاحتفت الأمة المصرية كتابها وشعراؤها وساستها وقد تحدث فى مجمع حافل برجال العلم عن رأيه فى الفلسفة وحقيقة السعادة وذهب الى أن وراء هذا العالم المادى الضيق عالما روحيا فسيحا مملوءا بانواع من الجمال وألوان السعادة والى أن النفس الأنسانية انما تسعد اذا تجردت عن عالم المادة ووصلت الى حال من المشاهدة تستجلى فيها صنوف الحكمة وتدرك كثيراً من أسرار الله فى خلقه وتستمتع بمظاهر الطبيعة المختلفة

وقد رأيت لهذه المناسبة أن أنشر كلمة فى بيان الفلسفة الهندية القديمة ومذاهب الناس فيها حتى تتجلى الصلة بين مراحل التفكير للعقل الانسانى

الهند بلاد عريقة فى القدم جمعت بين الجبال الشامخة والسهول الواسعة والأنهار العظيمة والأودية الخصيبة، تهب عليها الأنواء، وتثور العواصف الهوجاء، فى بعض فصول السنة وتهطل الأمطار وتتساقط من السماء كأفواه القرب، وتنمو فى ثراها أنواع من النبات ذات أشكال متعددة وألوان متنوعة فمن أزهار طيبة الرائحة الى أشجار فرعاء ذاهية فى جوف السماء الى غابات كثيفة هى عرين الأسود وموطن الحيوانات الضارية

ولا شك أن بلاد كهذه تترك فى نفس سكانها آثاراً لا يمحوها الزمن ولذلك نجد عند الهنود ميلا متأصلا الى محبة الطبيعة وشغفا زائدا باستجلاء

مظاهرها واحتراما لأحداثها يشغل الجوانح ويملأ القلب رهبة حتى يصل الى درجة العبادة

من البين ان أول ما يثير الشعور الديني عند الأنسان نظره فى عالم الحس وادراك عناصره وما يعتورها من استحالة أو زوال فيتوجه فكره الى معرفة السبب الأول الذى بيده تصريف هذه الأمور وتدبير الاحداث ويتلمسه فى كل شيء عظيم يبعث فى قلبه صنوف الرهبة والأجلال ويحرك فيه عاطفة الخوف والخضوع يرى النجوم اللامعة تسبح الى غاية لا يدرك الطرف مداها وهى بمعزل عن عالمه فيطمئن اليها ويؤمن بأنها لا تزول ولا تستحيل وأنها أرباب يصدر عنها كل ما يجرى فى عالم ثم يبزغ القمر وينلألأ نوره ويمتد فى الآفاق فيعدل عن النجوم اليه ثم يهتدى الى الشمس اذا أشرقت وأرسلت سناها على الاكوان ويتأملها فاذا هى تسير فى قبة زرقاء لا يعوقها حادث ولا يزال الأنسان على هذه الحال يتوجه بالعبادة الى ظاهرة من ظواهر الطبيعة حتى يهتدى فى النهاية الى أن هذا كله ضلال وباطل ويعلم أن المعبود بحق روح عامة لا يدرك بالحس ولا يحويه زمان ولا مكان وأن عالم الحس بما اشتمل عليه آية قدرته ومظهر سلطانه وعلى هذا النحو ينشأ الدين والفلسفة

لا غرابة بعد هذا اذا قلنا أن الهند بلاد علم وفلسفة

ويجمل بنا قبل أن نتكلم فى الفلسفة الهندية أن نقسمها قسمين البرهمية والبوذية

الفلسفة البرهمية

قد ورد فى الفصول القديمة من كتاب الفيدا ذكر لواحد من الآلهة اسمه « برَهْمَنَا سبَاتِى » ومعناها رب الصلاة وكانت وظيفة هـذا الاله انشاد الأغانى وترتيل الدعوات عند تقديم القرابين ثم نقلت هذه الكلمة من معناها الأصلى واستعملت فى الصلوات التى هى وظيفة ذلك الاله والصلوات أدعية يراد منها استرضاء الآلهة وتحقيق رغبة الأنسان ثم نقلت الكلمة واستعملت فيمن يحقق الرغبات ويستجيب الدعاء ويتصرف فى كل الشئون وذلك هو إله الحق وعلى هذا « بِرَهْمَنَا سبَاتِى » أو « بِرَهْمَا » عند الهنود اسم للأله القائم بذاته الذى يستمد منه كل شىء وجوده

الآن وقد بينا لك علة التسمية يجب علينا أن نتبين المبادئ التى اشتمل عليها هـذا الصنف من الفلسفة معتمدين فى كل ما نذكر على كتب الفيدا قديمها وحديثها وهى الكتب المقدسة عند الهنود

كان الهنود قديما يعتقدون بأن هناك روحا عاما صدرت عنه جميع الكائنات وهو الذى يحفظها بقدرته ويمسك السموات والأرض أن تزولا ولولا القدرة الألهية لذهبت هـذه الموجودات ولم يبق لها من أثر . أن أساس الدين عند الهنود وحدة الوجود فالله سبحانه حال فى كل شىء « فهو الواحد وهو الجميع » وهو مادة الكون وعلة وجوده « The clay aswell as the potter » فالله واحد فاضت منه الأشياء وسرى منه روح فى الجماد والنبات والحيوان على السواء ولا فرق بينها الا فى الدرجة وقد ورد فى كتب الفيدا ما معناه « انى انا الله نور الشمس وضوء الفجر وبريق اللهب

ووميض البرق وصوت الرياح والعرف الطيب ينبعث فى الارجاء والأصل الأزلى لجميع الكائنات وحياة كل موجود . انى صلاح الصالح . أنا الأول والآخر رب الأرباب مالك العالمين وخالق السموات والأرضين »

ان جميع الكائنات التى صدرت عن الموجود الأول متغيرة مستحيلة وحركة التغيير مستمرة دائمة وعلى هذا من الصعب جداً أدراك معنى للزمن الحاضر لأن الماضى ينتهى حيث يبدأ المستقبل وللأشياء دورة محدودة اذا انتهت عند آخرها بدأت سيرها من جديد والانسان أحد هذه الكائنات فيعرض له مايعرض لها وروحه قطرة من نور الله انفصلت عنه الى أجل معلوم ثم تعود اليه متى جاء الأجل كالقطرة من الماء تصعد من البحر وترقى فى السماء وتنتقل من جهة الى أخرى حتى تسقط على قمم الجبال وتجرى فى الأنهار حتى ترجع الى أصلها الذى منه نشأت وجوهرها الذى عنه انفصلت

ان جوهر الروح الهى طيب طاهر لا يصدر عنه الا كل خير ولكن اتصالها بالبدن مفسد لها مغير لأفعالها والرذائل انما تكون عنها لأجل مقارنة البدن وهى لن ترجع الى جوهرها الا اذا كفرت عما ارتكبت من الخطايا ولما كانت الحياة الأنسانية قصيرة قد لا تتسع للتفكير الذى يطهرها ويخلصها من أوزارها كان من الضرورى أن تنتقل من جسم الى جسم حتى تؤدى ما عليها وتغسل من ذنوبها وتعود الى عنصرها الأول

من هذه العقائد المتقدمة يعلم أن غاية الحياة الاتحاد مع الله وذلك لا يكون الا اذا تجردت النفس عن عالم المادة واذ ذاك تتم لها السعادة . هذا نوع من الفلسفة الهندية وتلك غايته

الفلسفة البوذية

قدمنا لك ان الفلسفة الهندية شعبتان « البرهمية » وقد مضى قولنا فيها و « البوذية » وتنسب الى رجل من اعيان الهند هو جُوَاتَمَا سَكْيَا مُونِي الذى ولد فى منتصف القرن السادس قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام. نشأ فى بيت أبيه وكان حاكما على قسم من بلاد الهند وتهيأ له ما لم يتهيأ لغيره من الوان الترف وضروب النعيم ولما قطع تسعة وعشرين ربيعا ترك بيته وتنسك ولزم العبادة وزهد فى حطام الدنيا وعبثا حاول والده أن يقنعه بالبقاء معه وولاية الحكم من بعده . لجأ « جواتما » الى غابة كثيفة فاستظل بشجرة من أشجارها واقام هناك يعبد الله واستمر على ذلك الحال سبع سنين وبينما هو جالس ذات ليلة فاض عليه العلم وانكشف له الحجاب وتجلى عليه رب الأرباب وأطلعه على كثير من أسراره فى خلقه ومن ذلك الحين لقب « بوذا » أى العالم وقد يدعى « سكيامونى » ومعناها المتبتل من قبيلة سَكْيا وهى احدى قبائل الهند العظيمة فى الأزمنة القديمة

وبعد ذلك أخذ يعلم الناس وينشر فيهم مبادئه واتبعه خلق كثير وقد بورك له فى عمره فلم تدركه منيته الا بعد أن بلغ الثمانين وقد أحرقت جثته بعد موته بثمانية أيام ان الفلسفة البوذية لا تعترف بوجود اله قادر قائم بنفسه وانما تعترف بوجود قوة عظيمة تسرى فى المادة . وعندهم أن المادة قديمة وفيها صفة طبيعية وخاصة كامنة هى تنظيم نفسها بنفسها حتى لو دب اليها الفساد ولحقها الانحلال وهم يرون أن عالم الحس ضلال وباطل وأحلام تخلقها الحواس فلا يصح أن نغتر به ونخدع بتلك الخيالات الزائلة والسعادة فى أن تخلص

النفس من شرور هذا العالم وتفنى فى التأملات . جاء فى كتبهم ما معناه

« أيها الناس — مم تضحكون ؟ وبم تسرون ؟ أن الدنيا نار ملتهبة . لماذا لا تخرجون من الظلمات الى النور ؟ أن جسومكم مراض يلحقها الفساد ويدركها العدم والفناء . اليست نهاية الحياة الموت ؟ لا تحبوا شيئا فى هذا العالم فان فقد المحبوب شر وعاقبة المحبة الخوف أو الحزن . ان الذين لا يحبون ولا يكرهون قد خلصت نفوسهم من عالم الحس وشعرت بالسعادة »

وهم يقولون بالتناسخ ويذهبون الى أن روح الأنسان تحل فى كائن آخر بعد أن تفارق جسمه وقد يكون ذلك الكائن حيوانا أو انسانا تبعا لما قدمت النفس من خير وشر ولا تزال متنقلة على هذه الحال حتى تؤدى ما عليها وتصل الى الانعدام الحسى أو ما يسمونه « نِرْفَانا » ومعناها الفناء فى التأملات واستجلاء أنواع الجمال الروحى

ومن تعاليمهم أنهم ينهون عن الزنا وأكل أموال الناس بالباطل والكذب وشرب المسكرات ومما روى عنهم قولهم « لا تغلظ لأحد فى القول فقد يقابل الأساءة بمثلها » « ن الكراهة لا تمحوها الكراهة وانما تذهبها البشاشة فقابلوا الكراهة بالمحبة والشر بالخير والشح بالكرم والكذب بالصدق »

وبعد فهذه قطرة من الفلسفة الهندية سقناها اليك لتتبين الصلة بين القديم والحديث وتدرك العقل الانسانى فى عصوره المتتابعة وتعلم ألا جديد تحت الشمس ؟

محمد على
مدرس بدار العلوم